التفاؤل والتشاؤم أيضاً

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

إذا كان لقائل قولان: قول يتم عن تفاؤل، وآخر ينم عن تشاؤم، فليس من إخلاص الناقد للأدب أو للانسانية أو للقائل أن يشير إلى اليأس فى بعض قوله وألا يذيع الأمل فى بعضه حتى ولو كان الأمل فى الأقل من قوليه ؛ فإذا كان الأمل فى أكثر القولين أو إذا تعادلا كان إخلاص الناقد أقل . ومعاذ الله أن أقول إن الدكتور أدهم غير مخلص للأدب، وإنما يجىء البعد عن الإخلاص من الإسراع فى النقد من غير تدبُّر لهذه الحقائق أو من قلة التقصى والبحث التى هى صفة عامة فى الناس تظهر فى أحكامهم على أكثر الأمور . والناس فى ذلك سواسية لا فرق بين عادل وظالم ، ورفيق وغير رفيق ، وعاقل وغير عاقل . وإنى أحمل حكم الأديب الفاضل على هذه الصفة العامة فى الإنسان وأقول إنه إذا كان لقائل قولان ، وكان أحسن قوليه فى التفاؤل فمن الواجب إذاعة هذا القول ولاسيما أنه ليس تفاؤله بالقليل المنزور . ولا نحسب أن منصفا يقول إن ما ذكرنا من الشواهد ليس من أحسن ما قلت؛ وسواء أكان فى نفسه حسناً إذا قورن بقول غيرى أم غير حسن، فهو إذا قورن بما وصفه الناقد بالتشاؤم فى قولى أجود وأحسن وأليق بأن يذاع إذا كانت هناك ضرورة للاذاعة والنشر والنقد ، ولم ير الناقد أن من الخير اندثاره كله بما فيه من جيد ورديء ، ومن تفاؤل وتشاؤم . وفى قولى من الرديء ما أسفت لنشره .

ولم أذكر جميع الشواهد والقصائد التى تثبت ما فصلته فى مقالى السابق، ففى قصيدة (مصارع النجباء) أيضاً أمل وتفاؤل وطموح ومنها:

إنَّ الحياةَ جاهَا وبَهاءها ... هبَةٌ من النجباء والشهداء
لولا طماح الخالدين وهمُّهم ... بقىَ الورى كالتربة النكراء
الخالدون بكل مجد خالد ... سامى المنال كنزل الجوزاء
الشائدون الهادمون ذوو النهى ... والعقل أعظم هادم بنّاء
أنجالنون المهلكون الثائرو ... ن المرسلون بآية غرّاء

(*) قوبلت الخيار فى المقال السابق صحته فوجدت أن الذين أصابهم خلل الخبر .

خياتهم وقصائدهم ودماؤهم ... مثلُ الهدى وكواكب الإسراء

وأوبيورة (قوة الفكر) وقد نشرت فى العلم وفى الجزء الخامس تدعو إلى تقديس مظاهر الفكر فى الحياة والتفاؤل حتى بالخطوب التى يسببها الفكر ومنها :

إنَّ الخطوبَ سنّةُ التجدُّد ... فلا تُرَعْ من سهمها المسدَّد
وأول الفكر الكبير خطبُ ... ثم يَظَلُّ خيره يُرَبُّ

وقصيدة (عبث الشكوى) فى عنوانها ما يدل عليها. وقصيدة (أبناء الشمال) تدعو إلى السعى والعمل والأمل ومنها :

هُمْ لداعى السعى والآ ... مال عُمّال عِجَـــالُ
تعرف البيداء مما ... همْ وتنبيك الجبال

وقصيدة (صوت الله) تدعو إلى الاطمئنان إلى إرادة الله فى الحياة وإلى الالتجاء إليه ومنها :

وإنما نفس الفتى معبد ... يضيئها الله بنور عميم

وقصيدة (جهاد المصلحين) تصف ما يعترض الناس عامة من ترك آمال الإصلاح وساعيه وتدعو إلى التشبث بها ومنها :

ترى دنس الأشياء رؤية آلف ... يرى أن أحلام النفوس لغوب
يظن جهاد المرء فى العيش ضلّة ... وأن مساعى المصلحين تخيب
يرى أن خير الكون ما هو كائنٌ ... ووحى النفوس السامیات ضريب
ويحسب أن الشر ضربة لازب ... وأن أساليب الحياة ضروب
ويصبح فى مجرى الحوادث ريشةً ... تجوب به الأيام حيث تجوب
ويطفئ نور النفس حتى كأنما ... دواعى النفوس السامیات عيوب
فلا تعجبَنْ إن الشرور كثيرةٌ ... ولكنَّ يأس العاملين عجيب

وقصيدة (سنة العيش) تصف أمل المصلحين فى أن تلطّف طباع الحرص والشر فى النفس وتصف كيف أن فشل المصلحين ينبغى ألا يعوق عن الأمل ومنها :

طَبْعٌ قديمٌ سينضو المرء خلته ... مثل الأديم نفته صِمّة الصَّمَم (١)
لا بد من فشلٍ من بعده فشلٌ ... حتى يفيق سواد الناس من صَمَمِ
لا يسعد الناس سن الحرص سنتهم ... حتى يُطَهِّرَ داء الحرص بالندم

(١) الصمة الحية : أى يخلع المرء طابع الحرص كما تخلع الحية جلدها

وقصيدة (البطل المنتظر) تصف صلاح أمور الناس وتصف تفاؤلهم وأملهم وعملهم بعد الركود واليأس ومنها :

تمرُّ دهورٌ والحياةُ كما ترى
أمرُّ وقدماكان وهو طهورُ
إلى أن يحل الغيث حيوة مائه
فينزع منه جدول وغدير
كذلك حال الناس فالناس آجن
مرير وماء النابغين نمير
وبارقة تجلو الظلام وصاعق
يشب لهيباً والأنام قشور
فيضطرم القلب الذي كان خامداً
ويصبح روض النفس وهو نضير
وتعظم نفس المرء حتى كأنها
عوالم فيها الكائنات تدور

وقصيدة (الإيمان والقضاء) تصف أثر الإيمان في بث القوة والأمل في النفس ومنها :

كنفٌ مانعٌ وظلٌ ظليلٌ
وشرابٌ يشفي أوام الظماء

وهناك مقطوعات كثيرة مثل :

كل ما في الوجود مما يرين الـ
ـدمع أو يستبيح شجو الرحيم
كل شرٍّ مهما تعاظم لو قيـ
ـس بشأن الوجود غير عظيم

فليست التفاؤل عقيدة أعظم مما في هذين البيتين . وقصيدة : (الحياة والفنون) . كلها تفاؤل بجمال الفنون في الحياة ووصف لجمال كل من من الفنون الجميلة والفنون النافعة وأولها :

جُعلتِ الله ، حياة كما
جعل وجه السماء بالشُّهُب

والدعوة إلى بلوغ النفس غايتها بالطموح منتشرة في أكثر القصائد كما في قصيدة (على السرائر) . ومنها :

وإنَّ رضاء النفس ما ينبغي لها
وليس رضاء النفس ما هو كائن

وفي قصيدة أخرى :

والذئب يحمل بين جنبيه الذي
روَّعَ الغريبَ ورائحةَ المألوف
إنَّ الذي درس الزمان وفعله
لأجلُّ من حدث الزمان الموفي

ويشيم أسرار الحياة بحكمة
تُعدي على المجهول والمعروف

وفي قصيدة (العظيم) وصفٌ لاستنباط فضائل النفس من تجارب الحياة حتى تجارب الشر والشقاء . ومنها .

وفضائلٌ ليست لغير مُجرَّب
إن التجارب حجة الرجحان
وأجلُّ خير النفس بعد بلائها
فالعيش حرب فضيلة الفعلان

وفي قصيدة (الشعراء الفنية) وصف للرجاء الذي هو عبادة وللاعتقاد الذي تزيده الأرزاء :

نصبٌ خالدٌ وأعظم منه
اعتقادٌ تزيده الأرزاءُ

من رسالة الفن

كلما ارتقى فكر أمة انصرفت إلى إتقان الصناعة وحذق الوسائل الفنية، وشعرت في الحال بافتقارها إلى المواد الأولية. فالصناعة غول فاغر فاه يريد أن يلتهم أكبر مقدار من المادة ليحيلها إلى خلق جديد له وزن وثمن . أما الأمم البدائية فهي مشغولة في أغلب الأحيان بإنتاج المادة الخام

كذلك الحال في دولة الأدب والفن . فإن الأديب أو الفنان قبل أن يصل إلى مرحلة الانقطاع للفن والصناعة يكون شأنه شأن عامة الأفراد : يعيش الحياة المفعمة بشتى الحوادث ، الزاخرة بألوان المادة الصالحة ، حتى يدعوه الفن إلى سمائه ، فإذا هو يرى أن حذق أساليب الفن وإتقان أسباب الصناعة أمر لا بد له من تكريس حياة بأكملها . فإذا هو قد انصرف عن حياة الناس العادية بما فيها من وقائع هامة وتافهة وأحداث هائلة أو حقيرة ، وانعزل في شبه « معمل » فني أو مصنع فكري يجرِّد فيه وسائله ليملك ناصية ملكاته ، إلى أن يحس من نفسه أنه قد قطع في هذا السبيل شوطاً كبيراً وأنه قد غدا صاحب صناعة . فيلتفت فإذا أيامه التي قضاها في مصنع الفن قد فصلته عن الحياة الرحبة الصاخبة الزاخرة ، وإذا حياته الآن فارغة إلا من جواهر الفكر ولباب التأمل وتجارب الصناعة القلمية أو الفنية . وإذا هو محتاج لاستعمال فنه وصناعته إلى مواد أولية لا يدري من أين يأتي بها . فهو تارة يرجع إلى حوادث الماضي فينسج من ذكرياتها تلك الأثواب الجميلة التي تخرج عن مصنع فكره وفنه . لقد لحظ ذلك مرة شارلز ديكنز فقال وهو في سن الستين :

« إني دائماً أتغذى وأغذي قصصي ومؤلفاتي بذكريات الطفولة والصبا ! ».

ما الأديب ذو الصناعة إذن إلا دولة صناعية في حاجة دائمة إلى المواد الأولية .

ترشيد الكيلاني

ورجاءٌ هو العبادة والإيـ ـمان دوحٌ يرتد عنه الفناءُ

وقصيدة (العدل والكسب) تصف كيف أن الأمل والصبر أعظم حتى من العدل :

فطوبى لمظلوم رأى العدل مهزوماً قضى أن فوق العدل صبر المحارب

وفى (حقوق الفرائض) تقديم للفروض على الحقوق، وما تستلزمه الفروض من أمل وعمل :

لَنْ يبلغ المرء المُنَى بحقوقه إلاّ إذا بلغ المُنَى بحقوقها

وقصيدة (البطل) تصف ما يكون من أثر الأمل والعمل فى مجرى الحوادث والأقدار ومنها :

ترى الحوادث بالظلال أمامها فترى خُطى الأمر الذى هو آتى

يا راكب الأيام تجرى تحته مأمونة الخطوات والعداوات

إنّ القادر تتحيك لأنها ربطت لديك محكمة وحصاة

كالخيل تعرف رائضاً ومُذلّلاً عند اعتقاد السرج والصهوات

وهذه الشواهد كلها شواهد جديدة لم تشر إليها فى المقال السابق. ولو شاء الناقد الفاضل الزيادة زدناه ولكنا نختم هذا المقال بالأبيات الآتية أولاً فى وصف أمل النفس فى أن تتغلب جهود الشباب على طاغوت الحياة وهذا غاية التفاؤل :

ويُذلُّ طاغوت الأمور فتقتدى شَرْعَ الحياة شريعةُ الإرهان

وثانياً فى وصف تفاؤل النفس واعتقادها خيراً للانسانية مستقبلا :

وأملتُ للدنيا صباحاً مؤجّلاً سيكشف عنها ظلمة الغيم والشر

فكل سباح رمزه ومثاله ووعد به يمتد إلى الزمن النضر

نُسرُّ بإنعاه وإن لم تكن لنا ونشهده فيما يكون من الدهر

وثالثاً فى وصف الاستبشار بقبول الشقاء لتحقق سعادة الإنسانية المقبلة :

أيفدح أن تقاسوا البؤس نحساً ليُسعدَ بعدكم صحباً وآلا

وكم من نعمة لولا شقاء قديماً لم تكُنْ إلا وبالا

فكم خَبَرَ الأوائل من شقاء فنلنا من شقائهمُ نوالا

ورابعاً فى أن السعادة واللذة شعور لا يستقيم إلا إذا شعر المرء بالألم :

لا يطعم السعدُ النّهىّ وشهده من لا تزود فؤادَه الآلام

وإذا أراد الأستاذ الفاضل زيادة من شعر التفاؤل فانه يجده كما فى قصيده (حياة جديده) أو منها :

تلك قلوبٌ كأنها نفسٌ بيضاء دجن القضاء والعيب

قد آمنت بالعلاء واعتقدت كما يقدّس الإلهَ فى الحجب

وكما فى قصيدة الباحث :

عشت دهرى بالبحث والأمل الحا ر ولولاه لم أرُحْ بسجاه

من سهام المنون إن صروف الـ ـدهر فينا كثيرة الإصماء

أنشد الحق بالتقلّب فى العيـ ـش وأبغى سريرة الأشياء

وقد قلنا قديماً إن فى النفس البشرية قوة تستطيع أن تحول التشاؤم إلى غرض من أغراض التفاؤل، وإلى قوة من قوى الاستبسال فى طلب الأمل (إنما اليأس سبيل الفنى). ونعود فنقول إنه ليس من الإخلاص للأدب أو الأديب أو الإنسانية ترك أحسن ما فى قول للقائل. وهذا قول لا نتهم به الناقد الفاضل

عبد الرحمن شكرى

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر تقدم

ثمرة زهية من التأليف العلمى وتحفة أدبية

مباحث عربية

لحضرة الأستاذ بشر فارس

الدكتور فى الآداب من السوربون

موضوعات مبتكرة . توجيه جديد . اصطلاحات مستحدثة فى ألوان الحضارة والتعبير العلمى . مراجع وافية فيها الكثير من النادر والمخطوط . تعليقات مستفيضة .

٣ مجلدات :- الأول: للمخطوطات . الثانى: للاصطلاحات العربية . الثالث: للاصطلاحات الأوربية

طبع متقن وورق ممتاز

الثمن ١٥ قرشا صاغا (٣/٢ شلنا) عدا أجرة البريد